سبل تفعيل منهج الوسطية في واقعنا المعاصر

د/ إسماعيل محمد علي عبد الرحمن

أستاذ أصول الفقه المساعد بجامعة الأزهر

ورئيس فرع المنظمة العالمية لخريجي الأزهر بدمياط

لقد رفع الله عز وجل قدر أمة الإسلام، إذ جعلها أمة وسطا بين الأمم، حيث قال جل وعلا: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ سورة البقرة /143

ومن المعلوم أن الوسطية لم تكن سمة مميزة لهذه الأمة المحمدية فحسب، وإنما كانت منهجا وسبيلاً، أمرت به الشريعة المسلمين، وحثتهم على التزامه والتخلق به، مثلما حذرت من التنكب عنه والالتجاء إلى الإفراط أو التفريط فيه وفي هذا المعنى يقول الشاطبي رحمه الله في الموافقات: الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة ولا انحلال...أ.هـ

ونحن اليوم أشد احتياجاً إلى التأكيد على ضرورة التزام الوسطية، والتخلق بها في عباداتنا ومعاملاتنا وسلوكياتنا، نظراً لتخلي بعض فئات المسلمين عن الاستمساك بهذه الوسطية واستبدالها اما بتحلل وتحرر من احكام الشريعة واما بغلو وتشدد أضر بالمسلمين والإسلام، وكلاهما وبال على الاسلام والمسلمين .

لقد دعت الشريعة الإسلامية في العديد من نصوصها الواردة في الكتاب والسنة إلى القصد والاعتدال في كل الأمور،

ومن ذلك قوله تعالى : قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً) سورة الفرقان /67 وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الاعتدال والقصد أو الوسطية منهج أمرنا الإسلام أن نتحلى به ونلتزمه في سلوكنا كما دعانا النبي ρ إلى ذلك في أحاديث عديدة، منها: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، حيث يقول: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ، فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمين الخط ويساره ، وقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا : " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون "..

(أخرجه أحمد والنسائي والحاكم)

وهذه النصوص ونحوها تعد تفعيلا عمليا لذلك المنهج الوسطى، منذ بزوغ فجر الإسلام الأول، وتلك حقيقة مستقرة وواقع ثابت مستمر بإذن الله تعالى إلي قيام الساعة، وفي هذا المقام ونحن نريد صياغة التفعيل العملي لوسطية الاسلام بما يتناسب مع هذا العصر الذي نعيشه ويتفاعل مع أدواته وإجراءاته، ومن منظور أرى أنه يمكن أن يسهم في بناء الشخصية المسلمة المعاصرة ولا يتأتى ذلك إلا باتباع السبل الآتية:

السبيل الأول: إعداد مشروع متكامل يتبنى منهج الوسطية والاعتدال، وتتولاه الجهات المعنية بهذا الشأن.

مع الحرص عليه باعتباره ضرورة من ضرورات هذا العصر الذي نعيش فيه؛ لأننا نرى انتشارا مُطرداً لطرفي الوسطية:

الطرف الأول: المغالون المتشددون الذين استباحوا- باسم الدين- الدماء وأهلكوا الحرث والنسل.

والطرف الثاني: المفرطون الذين تحرروا من أحكام الشريعة وقيمها و تساهلوا في أمور الدين واستمرأوا المعاصي وجاهروا بها.

وكلاهما يجلب وبالاً على صاحبه و نفسه و أسرته، بله مجتمعه وعلي أمته الإسلامية بل والعالم بأسره.

أما الطرف الأول وأعني به فريق المتشددين، فهو الطرف الذي ينال اهتمام الحكام وولاة الأمر وأهل العلم لشدة مخاطره وشروره، ولذلك يسعي الجميع لمعالجة هذا الفكر المتشدد. أما الطرف الثاني وهم المتحررون من ثوابت الدين وقيمه؛ فأرى أنهم بحاجة- كذلك- إلي الأخذ بأيديهم إلي الطريق القويم، وكلا الفريقين يحتاج- من وجهة نظري- إلي وضع مشروع يهدف إلي إحياء دعوة الوسطية عند المفتقدين لها أو الجاهلين بمنزلتها في الإسلام.

ويتولى القيام بإعداد هذا المشروع عدد من الجهات المعنية، ومنها: الأزهر الشريف، ووزارة الأوقاف، والتعليم العالي، والتربية والتعليم، والإعلام.

السبيل الثاني: التذكير الدائم بمنزلة الوسطية في الإسلام.

إن الالتزام بمشروع يتبنى منهج الوسطية، بحيث يتم تفعيله في الواقع العملي لا يتأتى إلا بالتذكير الدائم، والتعريف المتواصل بأهمية وبيان الوسطية وبيان منزلتها في الإسلام، و يمكن تحقيق ذلك عن طريق إتباع الخطوات الآتية:

1- مراجعة المناهج الدراسية بحيث تتواءم مع منهج الوسطية والاعتدال، مع حذف كل ما يدعو إلي التطرف والغلو إضافة إلي التنبيه على أهمية تدريس الوسطية، والتحذير من الغلو في الدين والتطرف في الفكر والإرهاب للآمنين والتكفير للمؤمنين.

2- تخصيص برامج إعلامية في وسائل الإعلام: المرئية والمسموعة، واستغلال تقنية الانترنت؛ لبيان حقيقة الإسلام وجوهره، ونبذه للغلو والتطرف، كما تتضح أمارات هذا الفكر وغايته وضرره على الفرد والمجتمع.

3- إقامة المؤتمرات والندوات المستمرة، وإصدار عدد من الدوريات التي تبحث في مثل هذه الظواهر؛ حتى تضع لولاة الأمر أفضل الوسائل والطرق لتصحيح فكر هؤلاء الضالين، والأخذ بأيديهم إلي منهج الوسطية والاعتدال، بحيث تحمي الأمة من شر هؤلاء وخطرهم.

4- قيام رجال التعليم في جميع مراحله بتخصيص ساعات محددة في كل فصل دراسي لبيان وسطية الإسلام ونبذه للغلو والتطرف، حتى نحصن شبابنا ضد هذا الفكر الذي يعصف بشباب الأمة، ويؤدى إلي هلاكها كما أهلك الأمم السابقة.

السبيل الثالث: كشف فكر الغلاة والمتشددين وبيان حكم الشرع فيهم.

إن تحقيق الوسطية في واقعنا العملي يستلزم نبذ طرفيْها، الأول: الغلو والتشدد، والثاني: التفريط والتحلل، وكل لا يتفق فكره مع روح الوسطية والاعتدال ولا يتلاءم معها، وكلاهما أمر مذموم؛ لأن فيه إتباع للهوى والشيطان ومخالفة لهدي سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله : فما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما إلي تفريط وإضاعة ، وإما إلي إفراط وغلو ، ودين الله تعالى وسط بين الجافي عنه والغالي فيه : كالوادي بين جبلين والهُدَى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين(.

قال الشاعر :

وأوف ولا تستوف حقك كله وصافح فلم يستوف قط كريم
ولا تغل في شئ من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

والأخطر في عصرنا والأكثر استحواذا على الساحة الإعلامية والفكرية محليا

ودوليا ، هو الغلو والتشدد في الدين ، تحت مسميات عدة منها : التطرف ، والإرهاب ، والأصولية ، ونحوها.

هذا الاهتمام وتلك العناية كانت نتيجة حتمية ؛ نظراً لما قام به بعض الغلاة والمتشددين في الدين من اعتداء على الأرواح والأموال والأوطان في كثير من الدول العربية وغيرها.

وبَدَهيّ أن الشطط والتشدد يُعدّ أمراً لا يخلو منه دين من الأديان ، ولا مجتمع من المجتمعات ، ودورنا ومهمتنا إزاء الفكر أن نسعى إلى وضع الآليات والبرامج التي تشدد الخناق عليه ، ونحصره في أضيق الآفاق.

الأمر الذي يستلزم من الدعاة والمفكرين والمصلحين الأخذ بما يلي :

الأمر الأول : محاورة هؤلاء المغالين ودعوتهم بالحسنى إلى ترك الغلو والتشدد والرجوع إلى ساحة الوسطية وفكرها الرحيب.

الأمر الثاني : إبعاد غلاة المتشددين في أفكارهم عن المواقع التربوية التي تؤثر في تربية النشء والطلاب إذا لم يستجيبوا إلى العودة إلى منهج الاعتدال والوسطية.

الأمر الثالث : بيان حكم الشرع في الغلاة والمتشددين ، حيث أتى النهي صريحا عن الغلو في الدين في الكتاب والسنة ، ومن ذلك قوله تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) سورة المائدة /77

ومن السنة قوله ρ : " نعم بأمثال هؤلاء ، وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم"(أخرجه النسائي وابن ماجه والبيهقي)

. وقوله ρ : " هلك المتنطعون.. قالها ثلاثا "(أخرجه مسلم وأبوداود وأحمد)

والمتنطعون هم المتعمقون المتشددون في غير موضع التشدد وهو قول عام في التشدد في الأمور الدينية والدنيوية، وأن هذا التنطع كان سببا من أسباب هلاك من قبلنا ، فلنحذر أن نسلك مسلكهم في ذلك فيحل علينا الهلاك والضلال ، والهلاك هنا مادي ومعنوي ، كما أن الهلاك الناتج عن الغلو في الدين غالبا ما يتعدى شرره إلى غير صاحبه ليشمل الآمنين الأبرياء الذين حرم الشرع دماءهم وأموالهم . " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة". سورة الأنفال /25

السبيل الرابع : تدريس مادة الثقافة الإسلامية بالجامعات .

لقد أكد الكثيرون من علماء النفس والتربويين على أهمية دور الدين في استقرار الإنسان وتوازنه النفسي ، وحمايته من الانحراف والضلال ، ولذا يرى كثير منهم ضرورة شمول التعليم لكافة الجوانب الفكرية والشخصية ، مع إدخال مادة التربية الدينية إلى البرامج والأنشطة الجامعية ، لأن الدين هو الذي يحمي الفرد من نفسه ومن غيره ، وهو الذي يثبت فيه روح الأمانة والاطمئنان ، والرضا والسعادة ويقيه من شر الانحراف الفكري ، والضياع الديني والغلو العقدي والتشدد المذهبي.

واليوم في عصرنا غدت الجامعات العربية والإسلامية مرتعا خصيبا لبعض الأفكار الهدامة ، بل والمنحرفة عن حدود الاعتدال والوسطية ، فهناك من يدعو إلى التحلل من قيود الشرع وقصرها على العبادات مطالبا بالحرية ، بحجة أن الشريعة لا دخل لها في أحكام المعاملات وغيرها ، وهناك من يتشدد في الدين ويدعو إلى الاستمساك بآرائه فيه ،وكلاهما يؤثر – بلا شك – تأثيرا قويا على طلابه وتلاميذه الذين قلت بضاعتهم الدينية وثقافتهم الإسلامية النابعة من دينهم الحنيف وأحكامه الشاملة لكل جوانب الحياة ؛ لأن هؤلاء لم يتحصنوا فكريا ولا عقائديا تحصينا عمليا في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية لقد غيبوا عن الفكر الديني الصحيح وتغيرت مفاهيمهم تبعا لتغير المناهج الدينية ، بحيث أفرزت نتائج تلك العملية التعليمية طلابا لا يعرفون حقيقة دينهم ولا جوهره أو سلوكه وأخلاقه.

وإذا أردنا تفعيل منهج الوسطية في المرحلة الجامعية ، فلا بد من نشر الثقافة الإسلامية التي تحصن شبابنا عن طريق جعلها مادة مقررة في جميع سنوات المرحلة الجامعية.

هذه الثقافة يجب أن تحوي مجموعة القيم والموازين والعقائد والأخلاق والعلوم والأصول التي تشكل مجتمعات المسلمين بحيث يجري كل ذلك داخل بوتقة الإسلام ، لأنه بمثابة المؤثر الحقيقي في تشكيل أسلوب الأمة الإسلامية بل وحياتها جمعيا

ونحن بتقرير هذه المادة نكون قد حققنا عدة فوائد من أهمها :

1- تحصين الشباب ضد الانحلال والتطرف.

2- حماية الشباب من الغزو الفكري والثقافي.

3- إيقاف التأثير السلبي لوسائل الإعلام والعولمة.

4- تزويد المجتمع بجيل يقوم على الوسطية والاعتدال ينشر فيه الأمن والاستقرار والتقدم والازدهار.

ونحن بحاجة إلى تحصين شبابنا بعد الإيمان بالثقافة الإسلامية نظرا لمعطياته الآتية :

1- ضعف أو قلة العلم بكلية الشريعة الإسلامية وجوهرها وشموليتها وعموميتها لكل جوانب الحياة وهذه الظاهرة موجودة عند بعض من الطلاب والطالبات ، ثم إنه أمر ناشئ عن تهميش مادة التربية الدينية ، وتفريغها من مضامينها الإسلامية والتربوية مما يفقد دارسها الثقة في مصداقيتها ، وتحقيق مسماها ، وهو التربية الدينية ؛ لأنها خلت من تحصينهم بالعقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة.

2- قيام بعض رموز الفكر والثقافة والإعلام بتبني الدعوة إلى التغريب والعلمانية

ونحو ذلك من الاتجاهات الفكرية التي تنادي بفصل الدين عن الدولة قياسا على ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى.وهذا مطلب ينم عن جهل قائله بحقيقة الشريعة الإسلامية

3- تأثر الساحة الفكرية في المرحلة الجامعية بالاتجاهات الفكرية والعقدية داخل المجتمعات وذلك لعدة عوامل أهمها وسائل الإعلام المعاصرة من تلفاز وإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة.

4- وجود بعض أعضاء هيئة التدريس ممن يحملون أفكار تنتمي إلى طرفي الوسطية وهما التفريط والإفراط ، والأول داع إلى التحلّل من قيود الشريعة وأحكامها والثاني داع إلى الغلو والتشدد.

5- انتشار وشيوع بعض المذاهب الفكرية والعقائد لدى بعض طلاب الجامعات التي تخالف معتقد أهل السنة والجماعة كالشيعة والبهائية ونحوها.

السبيل الخامس:التوسع في التعليم المفتوح بجامعة الأزهر والمراكز الثقافية التابعة لوزارة الأوقاف :

نحن نعلم أن الغالب على فكر علماء الأزهر والأزهريين ، هو : مذهب الاعتدال والتوسط الذي يُعَدُّ سمة الإسلام والمسلمين ، إلا من شذ وندر منهم ، ولذا فإني أطالب مشيخة الأزهر وجامعته أن يتوسعوا في التعليم المفتوح لراغبي دراسة علوم الشريعة وفق منهج الوسطية الذي تقوم عليه الدراسة في جامعة الأزهر ، وليس ذلك فحسب بل أتمنى أن تُيَسَّر للدارسين سبل طلبهم ومن ذلك : الإكثار من أماكن التدريس وتعميمها لتشمل أغلب المحافظات ، خاصة تلك التي توجد بها كليات تابعة لجامعة الأزهر.

وفي هذا المقام لا يفوتنا أن نتوجه بالشكر الجزيل إلى الأزهر الشريف الذي أحيا نظام الرواق الأزهري في أوسع نطاق على مستوى مصرنا الحبيبة لدراسة علوم الشريعة السمحة التي تعزز الفكر الوسطي لدى راغبة دراسة العلوم الشرعية من غير الأزهريين كما نشكر وزارة الأوقاف التي أسست عددا طيبا من المراكز الثقافية على مستوى الدولة فقد غدا لهذه المراكز دور فاعل في إثراء هذا المذهب الوسطى ونشره في ربوع المجتمع المصري.

لكن أتمنى أن يتم التوسع فيها لتعم جميع المراكز ، ولا تقتصر فقط على عواصم المحافظات ، كما هو معمول به الآن.